د. مصطفى هيكل

«أن تلقن الفلاحين فنون النضال الماركسى هذا أمر قد يبدو صعبا فى البداية، لكن أن تخترق بهم قلعة الدكتور محمد حسين هيكل باشا قطب أقطاب حزب الأحرار الدستوريين (حزب كبار الملاك) فإن لهذا مذاقا خاصا وجميلا للغاية».

د. مصطفى هيكل

(فى حوارى معه - ١٩٦٩ ببرلين)

ولست أعرف كيف أبدأ؟ هل أبدأ بحواره المتحمس فى فندق إنتردين لندن ببرلين «الشرقية» أم بحنينى الدائم كى ألتقيه وبحثى الطويل عنه لأكمل معلوماتى عنه وعن تنظيمه المسمى «القلعة».

وربما كانت البداية الأكثر جمالا هى حكايتى مع ثماره الأكثر إبهارا من فلاحى كفر غنام الشيوعيين، فعندما كنت لم أزل طفلا فى الخامسة عشرة قبض علىّ وهناك حيث تجمعنا جميعا أمام محقق مرتبك لا يعرف معنى كلمة شيوعية ولا لماذا يحاكم المتهمون بها؟ ولا كيف؟ فجمعنا جميعا «حوالى ثلاثين شخصا»، أفندية ومدرسين وطلبة وفلاحين وعمالا وصاحب مكتبة وبائع كتب سريح وعسكرى مطافئ وأطفالا، وصار يحقق معنا واحدا واحدا أمام الجميع، هناك سمعت محاورات غاية فى الإمتاع، كنت مرتجفا من الرعب ليس من السجن الذى لا أعرفه، وإنما من أبى الذى أعرفه، وكان الفلاحون الآتون من كفر غنام هم الأكثر ذكاء وقدرة على إرباك الباشا وكيل النيابة. عم عبدالله عبدالحفيظ «عضو مجلس المديرية»، يتحدث عن الباشا محمد حسين هيكل بافتخار فهو ابن قريتهم وقريبه لكنه لا يلبث أن يهاجم الإقطاع والظلم والبؤس الذى يعيشه الفلاحون ويلقن وكيل النيابة دروسا فى الوطنية والعداء للاستعمار.. ويرتبك وكيل النيابة.. هل يحبس قريب الباشا أم يصغى لما يقوله من كلام يتدفق وطنية وعدلا، وهناك أحمد هرمز «طبال نقرزان

– والنقرزان هو طبل معلق أعلى جمل يتقدم أى موكب وزفة أى عرس»، وكان الطبال فصيحا وذا صوت مجلجل مثل النقرزان، ويدافع عن حقه فى قطعة أرض من تلك التى يزرعها لحساب الباشا وأمثاله ويقول إنه يكمل لقمة الأطفال بالعمل كطبال، أما المثير للدهشة فكان ذلك المرتدى جلبابا بلديا وصديريا أنيقا و«بلغة» ذات لون متألق. وعندما نادى عليه وكيل النيابة: فين أحمد هيكل؟ قدم مبتسما وصحح لوكيل النيابة: أنا الأستاذ أحمد هيكل. ويكتشف وكيل النيابة أنه مثقف مرموق وموظف كبير ورسام مبدع، فيتلعثم، ذلك أنه أيضا ابن أخ الباشا هيكل، ويسود الارتباك الحضور من محقق وضباط، ويأمر وكيل النيابة بحبس الجميع، حتى يتخلص من الارتباك، وذلك بعد أن اكتفى بسؤالهم: اسمك؟ سنك؟ مهنتك؟ عنوانك؟ ثم يحبسهم أربعة أيام على ذمة التحقيق.

وفى الحجز جلست القرفصاء لساعات طويلة وأنا أنصت لهؤلاء وهم يتحدثون عن الأستاذ مصطفى الذى كان المحقق يسأل كلا منهم، تعرف مصطفى هيكل؟ وتكون الإجابة «ده ابن بلدنا»، ويسأله المحقق: هل حدثك بهذه الأحاديث التى قلتها عن الفقراء والإقطاع؟ وتكون الإجابة: «هى دى محتاج حد يعلمهلنا؟».. وفى معتقل الهايكستب التقيت به لعدة أيام التقطنى من بين الجميع، الشورت الذى يرتديه طفل والارتباك الذى يلفه، لفت نظره إلى وأجلسنى ليشرح لى لماذا أنا معتقل؟ ولماذا يعتقلوننا؟ ولماذا يجب أن أثقف نفسى؟ وبعدها بأيام جرى ترحيله مع دفعة كبيرة ممن حضروا معى من المنصورة إلى معتقل الطور، وتمضى سنوات لأقرأ له كتيبات عدة ثم يختفى.

وعندما بدأت فى دراسة تاريخ الحركة الشيوعية بحثت عنه كثيرا دون جدوى، وفى أول زياراتى لبرلين الشرقية لأحضر اجتماعا لحركة السلام العالمية كان على سلم الطائرة ليستقبلنى، وبعدها تعددت اللقاءات وتعددت محاضر النقاش.

ونبدأ معه: «أبى شيخ أزهرى كبير وكان عضوا فى هيئة كبار العلماء، هو شيخ مستنير من مؤيدى الشيخ على عبدالرازق ومنه تعلمنا الفهم المستنير للدين، ومفردات الحرية والديمقراطية والمساواة أنا وأخى الأكبر أحمد وأخى الأصغر عبدالفتاح وحتى عمنا الدكتور محمد حسين هيكل باشا، كنت أسكن فى المنزل رقم ٦ درب اللبانة أى المنزل الملاصق لبيت الفن، ولم أكن بحاجة إلى مقدرة خاصة لاقتحام بيت الفن، فأخى أحمد رسام موهوب وكان له مرسم هناك.

وهناك عشت منبهرا بلوحات الفنانين السيرياليين، منصتا لحوارات لا تنقطع عن دور

الفن كمعمل بارود يفجر الراكد فى هذا المجتمع، وسمعت أشعارا ومساجلات، هل الفن للفن أم الفن للحياة؟ وعن الليبرالية والتروتسكية والعدمية، وفى المساء كان أخى أحمد يعيد شرح هذه المفردات، وتعرفت هناك إلى كبار اهتموا اهتماما خاصا بهذا الفتى الصغير»، وصمت ثم قال: «هل عرفت لماذا منحتك اهتماما خاصا عندما التقيتك فى هايكستب لقد فعلت ما فعل بى هؤلاء الكبار»، ويمضى: «التقيت وتناقشت فى تردد مع كامل التلمسانى وفؤاد كامل وأنور كامل وعصام الدين حفنى ناصف الذى كان يناقش التروتسكية بقرف واضح، وبعدها أخذنى إلى عيادة د. عبدالفتاح القاضى وتحدثا معى عن الاحتلال والفاشية والقصر الملكى ومعاهدة ١٩٣٦، وبدأوا فى فتح آفاق الماركسية أمامى، ولم أكن أكتفى بالاستماع، فكل ما أسمعه أعيده على أصدقائى، وفى عام ١٩٣٩ بدأنا نلتقى كمجموعة من طلاب الثانوى، الأغنياء بالبيجامات والفقراء بالجلاليب، عصر كل يوم فى تلك الزاوية التى تفصل بين مسجدى الرفاعى والسلطان حسن، كان أغلبنا من طلاب الخديوية الثانوية وبنباقادن الثانوية».

وفى كل عصر تدور حوارات صاخبة، لكن الفتى مصطفى كان يمتع الجميع بفهم جديد يستقيه من لقاءاته مع رواد بيت الفن ومن أبيه ومن أخيه أحمد، ومن كتب أمده بها عصام الدين ناصف ود. عبدالفتاح القاضى، ويمكن القول إنه كان المتحدث الأساسى أو بالدقة المحاضر الدائم، وتتسع المجموعة لتضم طلابا مثل فتحى هيكل وعبدالعزيز بيومى وعبدالفتاح يونس (طالب أزهرى – ابن شيخ التكية التركستانية، وكانت بؤرة شديدة العداء للاتحاد السوفيتى) ومحمد البخارى (طالب أزهرى وأصله من إندونيسيا) وعاملين أحدهما من الترسانة اسمه عبدالعزيز وآخر فى المطبعة الأميرية اسمه رمضان، وعلى أى حال يؤكد مصطفى هيكل: «كنا ثمانية، نتحاور كل يوم حتى أصبحنا مجموعة متقاربة فى الفكر والرأى».

* * *

«عندما قرأت كتاب "رأس المال" لكارل ماركس وجدته شديد الصعوبة وقررت تبسيطه وتلخيصه فأصدرت فى عام ١٩٤٧ كتابا سميته "خلاصة رأس المال" لكنه جاء أكثر تعقيدا من كتاب ماركس».

د. مصطفى هيكل

(من حوارى معه عام ١٩٧١)

لكن جغرافيا المكان، الذى تلتقى فيه هذه المجموعة فى تلك الزاوية بين مسجدى الرفاعى والسلطان حسن، فرضت عليهم القرب من مقر المركز العام لجماعة الإخوان المسلمين، وواحد من المجموعة أشار إلى الجماعة وإلى إمكانية الحوار معهم. وعن طريق صلاح عبد الحافظ الذى أصبح فيما بعد كادرا إخوانيا مرموقا قابل مصطفى الشيخ حسن البنا، وبدأت المجموعة فى حضور حديث الثلاثاء وأثاروا صخبا بأحديثهم عن الحرية والديمقراطية والعدل وهجومهم على الأغنياء وكان صوت مصطفى الجهورى يعلو فوق صوت الجميع. هذا الجمع الذى اعتاد الاستماع والاستماع فقط لما يقوله فضيلة المرشد وأمر المرشد بمنعهم من دخول المركز العام وكان ذلك عام ١٩٤٢. فعاد مصطفى ليكتفى بمجموعته.

ونقرأ فى محضر نقاش آخر أجريته مع واحد من أفراد هذه المجموعة هو عبد العزيز بيومى المحامى: «كان مصطفى ينطلق كالمدفع الرشاش سريع الطلقات يتحدث عن المجتمعات البدائية التى سماها الشيوعية البدائية ثم المجتمع العبودى ثم الإقطاع ثم الرأسمالية ثم الاشتراكية موضحا أن هناك قانونا يحكم هذا التطور وتناثرت منه عبارات وكلمات غير مألوفة مثل قوى الإنتاج وعلاقات الإنتاج والمادية التاريخية.. واستوقفته كثيرا مستوضحا عن معنى هذه الكلمات والمثير للدهشة أنه استطاع أن يشرح ذلك ببساطة وإقناع، وفى جلسة أخرى تحدث عن الاستعمار وعن الكفاح المشترك مع الشعب السودانى وتحدث عن حق تقرير المصير للشعب السودانى. وكان باهراً لنا جميعا وأصبحنا معه كدراويش يتلقون المعرفة من شيخهم، وأتى حادث ٤ فبراير ١٩٤٢ ليربكنا من جديد وليطيح بكل ما كان لدينا من ميول وفدية، وقررنا أن نؤسس تنظيما ماركسيا، ولم نكن نعلم أن هناك تنظيمات ماركسية أخرى فقد كنا محاصرين فى تلك الزاوية بين المسجدين. ويمكننى القول إننا أصبحنا فى عام ١٩٤٢ حلقة ماركسية. وحصل مصطفى عن طريق أصدقاء له (ربما كانا عصام الدين ناصف وعبد الفتاح القاضى) على كتيبات مترجمة (منها «البيان الشيوعى – رأس المال والعمل المأجور» و«القيمة والثمن والربح» وانهمكنا فى دراستها وهى بعض مما سمى فى «ح.م» المكتبة الخضراء». واتفقنا أن يجند كل منا عددا من معارفه». ونعود إلى مصطفى هيكل «فى العام ٤٢-١٩٤٣ دخلت كلية التجارة ودخل عبد العزيز بيومى كلية الحقوق، وأذكر أن عبدالعزيز لامنى بشدة لأننى

دخلت كلية البقالين بينما هو دخل كلية الوزراء، لكننى أفحمته بأننا ندرس فى الكلية علم الاقتصاد، والاقتصاد محرك التاريخ. وكانت مصر فى شوق بالغ للتغيير وكان الباب مفتوحاً أمامنا للتجنيد واتسعت مساحة العمل إلى ما هو خارج حى القلعة. وفى الجامعة ضممنا إلينا أحمد الرفاعى وعادل سيف النصر ومصطفى أغا وحمدى عبد الجواد وفؤاد عبد الحليم ونشط أخى فتحى وسط طلاب بنباقادن الثانوية ونشط الأزهريان عبد الفتاح يونس ومحمد البخارى فى الأزهر، وفى حى القلعة عديد من الحرفيين وضممنا بعض صانعى الأحذية وأقمنا علاقة بنقابتهم. وقررنا أن ننشط خلال الإجازة الصيفية فى قرانا، أحمد الرفاعى فى طناح وأنا وفتحى فى كفر غنام. واتسع نشاطنا عبر عبد العزيز بيومى فى منطقة المحجر وسوق السلاح، وفى إحدى زياراتى لعمى هيكل باشا قابلت شخصية كانت لامعة جدا فى ذلك الزمان هى محمد بك خطاب الذى أدرك هويتى وقابلنى مرات عديدة ليشرح أفكاره عن الإصلاح الزراعى والعدل الاجتماعى، وقال لى عبارة لم أزل أذكرها: «بدون إصلاح زراعى وعدل اجتماعى سينهار النظام القائم».

وعن طريق خطاب بك تعرفت إلى الضابط أحمد حمروش وانضم إلينا واتصلت بالمفكر الكبير نيقولا حداد فى النادى الشرقى (حيث المقر المركزى لحزب التجمع الآن) ورفض الانضمام إلينا قائلا إنه ضد تأسيس حزب، وأعطانى كتبا كثيرة واتصلت بسلامة موسى الذى منحنى كتبا عديدة، وكذلك محمد عبد الله عنان الذى شرح لى أسس بناء تنظيم سرى على أساس خلايا منفصلة كل منها من ثلاثة أعضاء. وفى عام ١٩٤٥ أصبح عددنا ١٥٠ عضوا، وسمع بنا أعضاء المنظمات الأخرى. ولأننا متمركزون أساسا فى حى القلعة، سمونا مجموعة القلعة ووجدت الاسم ملائما قبلت هذه التسمية، ولأن عمى كان هيكل باشا أسمونى الباشا ورحبت بهذا الاسم وتركت اسمى «منصور» وأصبح اسمى الباشا باعتباره التسمية التاريخية لباشا القلعة، وأصبح الباشا مرموقا فقد أصدر عام ١٩٤٥ كتابا بعنوان «مؤامرات فى ميدان السياسة المصرية»، ويتضمن تحليلا لحقيقة جماعة الإخوان وقد ساعده فى طبعه عدد من الوفديين، وفى عام ١٩٤٦ أصدر كتيبا بعنوان «قضيتنا الوطنية بين الحكومة والشعب» وكان عبارة عن برنامج علنى لتنظيم القلعة، وفى عام ١٩٤٧ أصدر مع عبد الرحمن بصيلة كتيبا عنوانه «تطور المجتمع»، وقد صدر باسم سرى هو مصطفى عبد الرحمن، ومع عبد الواحد بصيلة أصدر كتابا بعنوان «لماذا أيدنا

الاتحاد السوفيتى» وكان تنظيم القلعة يمضى فى توسعه وتشكلت له لجنة مركزية من مصطفى هيكل سكرتيرا عاما، وحمدى عبد الجواد وأحمد حمروش وعبد الواحد بصيلة وفؤاد عبد الحليم أعضاء.

ونعود إلى مصطفى هيكل فى حوار آخر معه: «سمعت أن المنظمات الأخرى تتوحد فاندفعت للتوحد معها دون أن يطلبوا منى ذلك ورفعت شعار: «ليس ثوريا من لا يوحد الثوريين. وانضم بعضنا إلى ايسكرا والبعض الآخر إلى الحركة المصرية للتحرر الوطنى ثم التقينا جميعا فى منظمة حدتو. لكن شهدى عطية الذى كان أول من اتصلت به من أجل الوحدة قام بتكتل ضد القيادة سماه التكتل الثورى. وطلب إلى الانضمام إليه مطالبا بإبعاد الأجانب من القيادة فرفضت وبدأت مفاوضات بينه وبين القيادة، واقترحت اختيار شهدى سكرتيرا عاما لحدتو، وأن يتم تجميع الأجانب فى قسم خاص بهم ورفض الآخرون الحل، فكيف نكافئ المتكتل بتوليه موقع السكرتير العام. وباختصار كنا أنا ومجموعة كبيرة من كوادر حدتو فى مأزق، نحن نرفض التكتل وندينه ونرفض القيادة بتركيبها المثير للخلاف وقادنا هذا الارتباك إلى موقف أكثر ارتباكا فأصدرنا نشرته سرية عنوانها «صوت المعارضة» نعارض الطرفين، ولكن نعلن فى نفس الوقت عن خضوعنا التنظيمى لقيادة حدتو».

«وفى عام ١٩٤٩ اعتقلت رغم أن عمى كان أحد أقطاب الحكم آنذاك، وبعد الإفراج عنى تفرغت بعض الوقت للكتابة فأصدرت «مذكرات معتقل» و«السلام وحرية الشعوب» و«أناشيد من فيتنام» و«كيف تكتب القصة القصيرة»، وكان الانقسام لم يزل ينهش الجسد الحزبى ودون أن أجد أى قدرة على التبرير لما فعلت تركت مصر تاركا وظيفتى فى مصلحة البريد ورحل معى أخى فتحى. حيث بدأ كل منا فى إعداد رسالة دكتوراه وعملنا معا فى الإذاعة العربية لفرنسا، وفى عدوان ١٩٥٦ رفضنا إذاعة البيانات عن العدوان الثلاثى بل تمادينا فأذعنا بيانا باسمنا ندين فيها العدوان وهربنا من فرنسا إلى ألمانيا الديمقراطية، ليكمل كل منا الدكتوراه ولأعمل مدرسا فى جامعة برلين ويعمل فتحى فى جامعة ليبزج».

وينتهى الحوار مع صاحب تجربة خصبة لا يمكن نسيانها.